ثانيًا : أسس رعاية اليتامى في التشريع الإسلامي

تقوم رعاية الأيتام في الإسلام على قواعد الإسلام الكلية، وتنبع من فيض عدالته وحكمته، حيث انطلقت أسس رعايتهم من منطلقات ثابتة مستمدة أصولها من الإسلام، ونحن هنا نعدد الأسس التي تقوم عليها رعاية الأيتام في التشريع الإسلامي، ليُعلم أن ما يقدم لليتامى ليس منطلقًا من عطف مؤقت، أو رحمة عارضة أو إحسان يمارسه المسلم في يومه ويتلاشى في غده، بل تقوم رعاية اليتامى في الإسلام على أسس ركيزة ومنطلقات راسخة تحفها تعاليم هذا الدين العظيم ومن هذه .

١- الإنسان مخلوق مكرم،ومكانته محترمة في الإسلام:

لقد أسجد الله ملائكته للإنسان حين خلقه، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا من طين ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ**﴾ [ص: آية ٧١- ٧٤] ، وهذا السجود سجود إكرام وإعظام واحترام كما ذكر المفسرون [١] .

وجنس الإنسان مكرم، وله منزلة خاصة بين مخلوقات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء، آية: ٧٠]، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: « **المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته** » [٢] ، ولقد كرم الله – عز وجل – هذا المخلوق البشري على كثير ممن خلق وفضله على كثير منهم. كرمه بهيئته، وتسويته، وفطرته، وخلافته في الأرض، وبتسخير الكون له،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ص١١٤٩.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، حديث رقم ٣٩٤٧.

وكرمه بإعلان ذلك التكريم وتخليده في كتابه العزيز.

« فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها في العقل والعلم والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر، والطاعة، والانقياد » (١).

كما خص الله – عز وجل – الإنسان بميزة جعلته من أشرف المخلوقات، وهي العقل، وإلى جانب ذلك فالإنسان يمتاز بما به من تركيب جسماني خاص يسهل له القيام بمختلف الأعمال التي يمارسها كالاعتدال والاستواء، ذلك أن الله خلق كل شيء منكبًا على وجهه وخلق الإنسان مستويًا (٢).

قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر، آية: ٦٤].

ومن هنا، فالإنسان مكرم له منزلته المحترمة، وله كرامته المصونة المعتبرة، واليتيم له حق في هذا التكريم، ومما يزيد في تكريم اليتيم الضعف الذي يعيشه بسبب يُتمه ومسكنته وهوانه على الناس.

٢- المجتمع المسلم مجتمع متراحم متماسك متواد:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الفتح، الآية: ٢٩]، وقال تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد، آية: ١٧] ويصف الرسول ﷺ

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، دار نجد للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ، ج١، ص٣٢٨.

(٢) المبادئ الاجتماعية في الإسلام، محمد رجاء عبدالمتجلي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة دعوة الحق، العدد ٨٤، ١٤١٩هـ.

المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، وذلك فيما رواه النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: « **ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى** » (١) . وعن أنس – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » (٢)، وذكر جرير بن عبدالله – رضي الله عنه – قول الرسول ﷺ: « **لا يرحم الله من لا يرحم الناس** » (٣) ، ولعظم قيمة التراحم عد رسول الله ﷺ الذي لا يرحم البشر – عمومًا – من الخاسرين ففي الحديث: « **خاب عبد وخسر لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر** » (٤) .

فالشريعة في نظرها للمجتمع تؤكد أنه كيان إنساني متواصل فالأسرة فيه ترتبط بالمودة الواصلة، والمجتمع في القرية والبلدة يتعاون أفراده على الخير والأخذ بيد الضعيف العاجز، والأمة يتضافر آحادها على الخير فيما بينهم وعلى التعاون فيما ينفعهم، وذلك كله في قانون الإسلام يقتضي أن يمد الإنسان العون لكل من يحتاج إلى العون.

ومن هذا الأس الذي يحث على التراحم والرحمة، تقوم رعاية اليتيم في المجتمع المسلم، حيث الالتزام بتعليمات الدين الحنيف الحاثة على التراحم والتواد.

٣– إن جزاء الإحسان في الإسلام الإحسان:

قال الله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]، أي هل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم ٦٠١١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم ١٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، حديث رقم ٧٣٧٦.

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، بدون تاريخ، جزء١،ص٥١١.

جـــزاء مـــن أحســـن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، إلا أن يحسن خالقه إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم [١] . روى شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله كتب الإحسان على كل شيء** ... » الحديث [٢] .

وتتجـــلى حكمـــة التشريع ومتانة هذا الأس الذي تقوم عليه رعاية الأيتام من خلال تأمل هذه الآية الكريمة وربطها بالأس الذي نحن بصدده، قال تعالى: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِيـــنَ لَـــوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَـــدِيدًا**﴾ [النساء، الآية: ٩] ، فجعل كافل اليتيم اليوم إنما يعمل لنفسه لو ترك ذرية ضـــعافًا، فإنه ستعامل ذريته الضعاف بما عامل ذرية غيره، فليعاملوا الأيتام الذين تحت أيديهـــم، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم، فكما تحسن إلى اليتيم اليوم يحسن إلى أيتامك في الغد، وكما تدين تدان، فإن كان خيرًا كان الخير بالخير والبادئ أكـــرم، وإن كان شرًا كان الشر بالشر والبادئ أظلم. ويروى عن داود عليه السلام قوله: « كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .... » [٣] .

وفي هـــذا الأس تتبدى حقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنًا الذي أتى فوق كل ما تتطلـــع إليـــه آمال الحضارات الإنسانية كلها، مما يحقق كمال التكافل الاجتماعي في أبهى معانيه [٤] .

٤- المجتمع المسلم مجتمع متعاطف متكاتف متعاون:

لقـــد حض الإسلام وحرص على جعل المجتمع المسلم متآزرًا متعاونًا يشد بعضه بعضًـــا، وذلـــك من خلال الحث المتواصل لأفراده على خدمة بعضهم بعضا، وتفريج

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـــ، ص٨٣١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصيد، حديث رقم ٥٠٥٥.

(٣) الأدب المفرد، باب كن لليتيم كالأب الرحيم.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، دار الأندلس، جده، ١٤٠٨هـــ، ج٩، ص٢٩٩.

كرب إخوانهم المسلمين، وإدخال السرور على أنفسهم، وكف ضيعتهم، ورتب على ذلك الأجر الجزيل، وعده رسول الله ﷺمن أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ قال: (**أفضل العمل أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا أو تقضي عنه دينًا أو تطعمه خبزا**) [١]. كما جعل عون الرجل لأخيه المسلم صدقة يتصدق بها عن نفسه في كل يوم، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: « **في ابن آدم ستون وثلاثمائة سلامى أو عظم أو مفصل، على كل واحد في كل يوم صدقة، كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة** ...» الحديث [٢].

وقد وصف رسول الله ﷺ حال المؤمن من أخيه المؤمن في المجتمع بأبلغ عبارة وأدق وصف، وذلك فيما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال: « **المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه** »[٣] ، وأخرج مسلم – يرحمه الله – أن رسول الله ﷺ قال: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »[٤].

ويتواصل الحث من الرسول ﷺ لأفراد المجتمع المسلم بأن يتعاونوا ويكونوا في خدمة بعضهم بعضا، والمساعدة لقضاء حوائج بعضهم بعضا، روى جابر – رضي الله عنه – حديثًا عن الرسول ﷺ وفيه: « ... **من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته** » [٥] ، ويا له من عون للإنسان عندما يكون الله في حاجته، ولكن ذلك لا

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري، تحقيق: مصطفى عمارة، المكتبة العصرية، بيروت، جزء٣، ص١١٧.

(٢) الأدب المفرد، باب سقي الماء.

(٣) الأدب المفرد، باب المسلم مرآة أخيه.

(٤) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار السلام، كتاب الإيمان، دار السلام، حديث رقم ١٧٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، حدث رقم ٦٥٧٨.

obeikandl.com

يتحقق إلا حينما يكون المسلم في حاجة أخيه المحتاج لأي نوع من أنواع الحاجة.

ولقد وجه الرسول ﷺ أمته إلى نفع الناس وإدخال السرور على أنفسهم وكشف كربهم، وعد من يفعل ذلك بأنه أحب الناس إلى الله، كما أخبر ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال: « **أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله – عز وجل – سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربه** ... » الحديث [١] ، ولا شك أن من أشد الكرب على الإنسان هو اليتم الذي قد يعيشه الإنسان، وما يستتبعه من ضعف وضرر وضياع إذا لم يُتعهد ذلك اليتيم بالحفظ والرعاية فمن هنا نجد ذلك الحث المتواصل والمتتابع على التواد والتراحم وكشف الكرب بين المسلمين والعمل على نفعهم بشتى السبل.

٥- لا ترز وازرة وزر أخرى:

وهذا الأس خاص بالأطفال اللقطاء فمن المعلوم في الشريعة الإسلامية أن المسؤولية الجنائية والعقاب مبنية على مبدأ الاختيار ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿ **أَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى** ﴾ [النجم، آية: ٣٨- ٤١] فالوزر مرادف للذنب والسعي ينبني على الاختيار ومن ثم الجزاء مرادف للعقاب [٢] . ومن المعلوم شرعًا وعقلاً أن الطفل اللقيط لم يكن له ثمة اختيار ولا ذنب فيما حدث فليس له اختيار في طريقة خروجه إلى هذه الدنيا، حتى يؤخذ بجريرة غيره، بل إن التعامل معه من منطلق ذنب والديه يخالف عددًا من الآيات الصريحة في القرآن الكريم التي تنص على عدم تحمل الإنسان لأفعال غيره ومن ذلك قوله عز وجل ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ**

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، جزء١٢، ص٤٥٣.

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي، مركز أبحاث مكافحة الجريمة، وزارة الداخلية، الرياض، ١٤٠٥، ص١٣٨.

﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام، آية ١٦٤] وقد تكرر هذا المعنى في خمسة مواضع من القرآن مما يؤكد أهميته في التشريع الإسلامي.

ولا يتعارض هذا المبدأ مع الحديث الذي يروى منسوبًا إلى رسول الله ﷺ وهو (لا يدخل الجنة ولد زنا) فالحديث عن رسول الله ﷺ لا يصح وباطل وموضوع كما ذكر ذلك أهل الحديث [١] . ونقل المحدث الألباني – رحمه الله – كلامًا طويلاً لتبيان بطلان هذا الحديث ومن ذلك قول ابن الجوزي: إن هذا الحديث مخالف للأصول وأعظمها قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وزاد عليه ابن عرق قوله: ذلك الحديث مخالف لقول الرسول ﷺ الذي ترويه عائشة رضي الله عنه **(ولد الزنا ليس عليه من إثم أبويه شيء)** [٢] .

٦- وجوب تقديم الرعاية الشاملة لليتيم من قبل الدولة:

ذلك أن اليتيم يدخل ضمن الرعية التي يعد إمام المسلمين راعيًا لهم ومسؤولاً عنهم، كما في حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « **كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته** ... » الحديث [٣] ، وهذه المسؤولية التي تلزم إمام المسلمين تجاه رعيته ومن بينهم اليتيم، هي مسؤولية شاملة جوانب الرعاية كلها وما تحمله من وجوه ومعان فالرعاية قد تكون اقتصادية واجتماعية وطبية، ونفسية ... إلخ، فعن معقل بن يسار –

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن القيم، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٣، ص١٣٣. وكذلك كتاب : الموضوعات، ابن الجوزي، وكذلك ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، جزء ٣، ص٤٤٧، حديث رقم ١٢٨٧ وقال: إنه حديث باطل.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني، جزء٣، ص٤٤٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العتق، حديث رقم ٢٥٥٨.

رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلـــم يحطهـــا بنصحـــه، إلا لم يـــجد رائحة الجنة** » (١) . ومعنى (لم يحطها) لم يتعهد أمرها ويحفظها.

وفي صـــحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « **ما من أمير يلي أمر المسلمين لا يجهـــد لهـــم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة** » (٢) . كما أن ولي أمر المسلمين هو المســـؤول الأول والأخير عن الضعفاء في المجتمع، فقد روى جابر ــ رضي الله عنه ــ أن رســـول الله ﷺ قال: « **أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله، ومن تـــرك دَيْنًا أو ضياعًا فعلَيَّ وإليّ** »(٣)، ومما لا شك فيه أن اليتيم من الضعفاء، إن لم يكـــن أضعفهم فعلا، حيث عده رسول الله ﷺ أحد الضعيفين في المجتمع ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: « **اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة** » (٤) .

« وشريعة الإسلام التي تضطلع الدولة الإسلامية بإنفاذها تحمَّل الفرد المسؤولية في تـــرك غيره يموت جوعًا فكيف بالدولة وهي الأمينة على مقاصد الشريعة الحارسة أحكامهـــا ....، كمـــا تفرد الإسلام بجعل التزامات الدولة الاجتماعية شاملة ولاية الأطفـــال القصـــر الذين لا أولياء لهم ومراقبة أولياء هؤلاء إن وجدوا، وتزويج من لا أولياء أو أموال لهم » (٥) .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧١٥٠

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٦٦.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، حديث رقم ٢٤١٦.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، حديث رقم٣٦٧٨.

(٥) تقريـــر حقـــوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي، محمد فتحي عثمان، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد الثاني، ١٣٩٨هـــ. ص٦٨٧.

٧- ضرورة إتقان العمل في الإسلام:

لا يكتفي الإسلام بالحث على العمل فحسب؛ ومهما كان هذا العمل، بل نجده يتابع توجيهاته بإتقان ذلك العمل ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**) [١] ومن هنا فلا يكفي تقديم الرعاية المجردة لليتيم فلابد من الإتقان فيها حتى تبرأ ذمة من تولى ذلك ومن الإتقان تغطية جميع احيتاجاته البدنية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وذلك ببذل الطاقة في البحث عن أفضل السبل لرعاية اليتيم وتطوير طرق رعايته لتحقيق الإتقان الذي ينشده الإسلام من كل عامل.

وبعد ، فهذه هي أبرز الأسس التي تقوم عليها رعاية الأيتام في الإسلام، وهي أسس متينة تنهض بالمسؤولية الجسيمة التي ينبغي بذلها لهذه الفئة من المجتمع المسلم سواء من حاكمه أم محكوميه.

---

(١) مسند أبي يعلى، التميمي ، تحقيق: حسين أسد ، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٦، ج٧، وأدرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٣، ص١٠٦.

obeikandl.com